

الفصل الأول

ابن طفیل : حياته وآثاره

obeykandi.com

ابن طفيل : حياته وآثاره

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي . فهو ينتسب إلى قبيلة قيس ، تلك القبيلة التي بلغت من الشهرة حدّاً جعل اسمها يطلق على ما سوى اليمنيين من العرب . وقد ولد في وادي آش — وهي بلدة في واد خصيب تبعد عن غرناطة بحوالي ستين كيلو متراً ، في أوائل القرن السادس الهجري .

هذا كل ما يذكره التاريخ عن طفولته وشبابه ، لكن ما لمركز الاجتماعي الذي كانت تشغله أسرته ؟ كيف قضى طفولته ؟ وأين قضّاها ؟ كيف تعلم ؟ وعلى من تعلم ؟ كل ذلك يهمله التاريخ : إذ يمضي سريعاً فيضعه في غرناطة دارساً للطب ، ثم يضعه في منصب أمين الأسرار لحاكم ولاية غرناطة ، ثم كاتم أسرار لدى الأمير أبي سعيد حاكم طنجة وهو أحد أولاد عبد المؤمن ، ثم يمضي التاريخ سريعاً فيضعنا أمام ابن طفيل طبيب أبي يعقوب يوسف صاحب المغرب بل صديقه ووزيره . وقد قويت الصلة بين الفيلسوف وأبي يعقوب لأسباب عدة منها :

(١) كان كلاهما ينتسب إلى قبيلة قيس ، وصلة الدم عند العرب معروفة فهما أبناء عمومة كما يقول العرب .

(٢) وكان كل منهما أديباً ، يقول المراكشي عن أبي يعقوب « رفيق حواشي اللسان ، حلو الألفاظ حسن الحديث . . . أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها وآثرها ، وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام . . . كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر

في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية . . . صبح عندي أنه كان يحفظ أحد المسيحيين ، الشك مني : إما البخاري أو مسلم ، وأغلب ظني أنه البخاري . حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن .

هذا هو أبو يعقوب أما ابن طفيل فستحدث عن أدبه فيما بعد :
(٢) وكان كل منهما نهماً فيما يتعلق بالمعرفة العلمية العامة فكان عند أبي يعقوب « إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط » وكذلك كان الفيلسوف الطبيب الفلسكي العالم بالتشريح .

(٤) وأخيراً كان كل منهما منغمساً في الفلسفة ، أما ابن طفيل فهو فيلسوف بطبعه « وكان متعمقاً بجميع أجزاء الفلسفة » وأما أبو يعقوب فقد « طمح به شرف نفسه وعلاو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزاءها وبدأ من ذلك بعلم الطب . . . ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي . . . ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب » .

لكل هذه الأسباب كان الانسجام تاماً بينه وبين الملك « حتى إنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر » .

وقد أدى ابن طفيل ، عن طريق هذه الصلة ، حق الزمالة العلمية خير أداء . فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار ، ويحض الملك على إكرامهم وتهميته الجو المناسب لهم .

وهو الذى نبه الملك ووجه نظره إلى ابن رشد « فمن حينئذ عرفوه
ونبه قدره عندهم »

فى رحاب هذا الملك عاش ابن طفيل عيشة هادئة مطمئنة . كان فيها
الطبيب ، وكان فيها المستشار العالى ، وهو الذى حفز ابن رشد — تحقيقاً
لرغبة أبى يعقوب — على العمل العظيم الذى قام به من تلخيص كتب
أرسطو وشرحها .

ماذا أنتج ابن طفيل فى فترته هذه الهادئة المطمئنة ؟ . إن المؤرخين
يحدثوننا عن « تصانيف فى أنواع الفلاسفة من الطبيعيات والآلهيات وغير
ذلك » . ويحدثوننا عن رسالة فى النفس ، وعن رسائل تبودلات بينه وبين
ابن رشد فى الطب ، ويذكر البطروجى الفلكى وابن رشد أن ابن طفيل
وفق لنظام فلكى يخالف النظام الذى وضعه بطليموس .

بيد أننا على جمل تام بهذا النظام الفلكى وبغيره من النواحي الأخرى .
والمصدر الوحيد الذى نعتد عليه هو رسالة حى بن يقظان فى الكتاب
الوحيد الذى بقى من رسائل ابن طفيل . وإذا كان ابن طفيل طبيباً بحكم
وضعه فى القصر ، وفلسكياً بشهادة أحد كبار الفلاسفة ، وفلاسوفاً آلهياً ، فإنه
كان أيضاً أديباً ، ورسالة حى بن يقظان تبرهن على ذلك فى وضوح : تألق
فى الأسلوب ، وبراعة فى التعبير ، وسلاسة فى التركيبات ، ولقد طوع اللغة
لأفكاره فأدى المعنى فى دقة تامة بأسلوب بارع .

يقول الدكتور أحمد أمين بحق « نحن لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل
من الناحية الأدبية ، وجدنا أن ابن طفيل أرقى من ابن سينا بكثير من حيث
اللغة والأدب : فعبارة ابن طفيل أدبية مشرقة ، وعبارة ابن سينا مغلفة

غامضة ، ويظهر أن ابن طفيل كان مثقفاً ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا
ففي كثير من عبارات ابن سينا والملاحظة ما يدل على أنه كان يستقي معلوماته
اللغوية من المراجع ، لا من كتب الأدب ، فجاءت بعض الأحيان نائية .
أما ابن طفيل فيستقي معلوماته اللغوية والأدبية من كتب الأدب والمثقفين
بها ، فجاءت عبارته أنصح وأبلغ ^(١) .

وإذا كان ابن طفيل أدبياً ناثراً ، فقد كان شاعراً أيضاً ، وإذا كان
نثره يمتاز على نثر ابن سينا ، فقد كان شعره يمتاز على شعر ابن سينا أيضاً ، وقد
كان في شعره صاحب مزاج ، ذلك أنه لم يكن يتكسب به . ولذلك اقتصر
شعره تقريباً على العواطف والفلسفة ، فمن شعره العاطفي :

ولما التقينا بعد طول تهاجر	وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلست عن ثناياها وأومض بارق	فلم أدر من شق الشجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكي	فلم أدر دمعاً أينما كان أسجما
فقلت وقد رق الحديث وأبصرت	قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً	يهون صعباً أو يرخص مأثماً
فأمسكت لا مستغنياً عن نوالها	ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرماً

ومن شعره في صلة الروح بالبدن :

نور تردد في طين إلى أجل	فانحاز علواً وخلي الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا	أظنها هبنة كانت على دخن
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما	فيالها صفقة تمت على غبن

(١) أحمد أمين (حي بن يقظان) .

ومن شعره في اختلاف الناس من حيث الاستعداد الطبيعي لتقبل
المعاني السامية :

ما كل من شم نال رائحة	للناس في ذاتين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم	بين المعاني ، أولئك النجب
وفرقة في القشور قد وقفوا	وليس يدرون لب ما طلبوا
لا غاية تنجلي لناظرهم	منه ، ولا ينقضي لهم أرب
لا يتمدى امرؤ جيلته	قد قسمت في الطبيعة الرتب

هذا النزول اليسير هو كل ما نعلم عن حياة ابن طفيل ، وعن آثاره التي
بادت ، بيد أنه ، لحسن الحظ ، قد بقي أثره الخالد «حى بن يقطان» ، وهو قصة
بلغت من القوة المنطقية حد الروعة ، في أسلوب جزل سلس . وقد حوت
آراء ابن طفيل في أهم المشاكل الفلسفية . ولا نبالغ إذا قلنا إنها مذهب
فلسفي كامل تتجلى فيه الدقة بكل معانيها . وقد صور فيها ابن طفيل «حى
بن يقطان» ، وقد نشأ في جزيرة منعزلة عن العالم ، لا أثر فيها لبني البشر ،
فأخذ ينظر ويتأمل ويستنتج متدرجا من المحسوس إلى المعقول ، ومن
الجزئيات إلى الكليات ، حتى وصل إلى تكوين فكرة عن الله وعن الملائكة
الأعلى . ثم أخذ في الرياضة الروحية حتى وصل إلى طور الولاية .
ثم شامت الظروف أن يصل إلى جزيرته عابد متدين بدين سماوي ، أراد
العزلة ليتفرغ للعبادة ، فالتقى به حى بن يقطان . وبعد تفاههما وأخذ كل
منهما عن الآخر ، التزم حى بن يقطان ما ذكره له العابد من شعائر دينية .

وبعد محاولة فاشلة لهداية المدينة إلى نشأ فيها العابد عاد حتى إلى جزيرته واستقر فيها إلى أن أتاه اليقين .

هذا ، في كلمات ، بجمل القصة ، وعليها اعتمدنا في الكتابة عن فلسفة ابن طفيل .

ولقد استمر ابن طفيل في صحبة أبي يعقوب إلى سنة ٥٨٠ هـ حيث توفي أبو يعقوب .

ولما قام بالأمر من بعده ولده أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور مكث ابن طفيل في صحبته . بيد أن حياته لم تطل بعد صديقه ، فقد وافته المنية بعد وفاة أبي يعقوب بسنة واحدة أي سنة ٥٨١ هـ . فاحتفل بدفنه احتفالاً يليق بمكانته ، وسار أبو يوسف يعقوب بنفسه في جنازته . رحمه الله رحمة واسعة .